النهج الإسلاميّ في الحفاظ على البيئة

محمود سعيد

مقدّمة :

إنّ علم البيئة اليوم يشكّل فرعًا مهمّا من علم الأحياء ؛ فهو يبحث «في الكائنات الحيّة ومواطنها البيئيّة» ، أي إنّه يبحث في «علاقة العوامل الحيّة مع بعضها البعض ومع العوامل غير الحيّة المحيطة بها» .

المصطلح Ecology اشتقّ من الكلمة الألمانيّة Okologie التي أوجدها العالم الألمانيّ Ernst Haeckel في سنة 1869 . وهي تعني في أصلها «علاقة الحيوان مع المكوّنات العضويّة واللاعضويّة في البيئة» . وأصل الكلمة مشتقّ من المقطع اليونانيّ Oikes بمعنى بيت و Logos بمعنى عامّ .

كلمة «بيئة» في اللغة العربيّة مشتقّة من الفعل الثلاثيّ «بوأ» ، حيث نقول : تبوّأ المكان ، أي نزل وأقام به ؛ فالبيئة هي المنزل أو الحال (بوران وأبو دية ، 1996) . لقد وردت الكلمة في القرآن الشريف في قوله ، تعالى ، مخاطبًا قوم ثمود : ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالاءَ اللّهِ وَلا تَعْثَواْ فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (74:7) . وفي قوله ، تعالى : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ (58:29) ؛ فالله أسكن الإنسان في الأرض وهو ينهاه عن إفسادها ، فهي مسكنه ومكان حياته .

في مقالتنا هنا سوف نتطرّق إلى بعض التعاليم الإسلاميّة في القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف التي تحثّ المسلمين على الاهتمام بعناصر البيئة وعدم تلويثها ؛ فلقد جاء الإسلام للدين والدنيا مهتمّا بصحّة البيئة ونظافتها ، مركّزًا على نظافة البدن والملبس والطعام . كما أمرنا بنظافة الشارع والبيت والموارد المائيّة . قال ، ﷺ : «النظافة شطر الإيمان» . وقال أيضًا : «إنّ اللّه طيّب ، يحبّ الطيّب ، نظيف ، يحبّ النظافة ، كريم ، يحبّ الكرم ؛ فنظّفوا أفنيتكم ودوركم» !

الإسلام والنظام البيئيّ :

قال ، تعالى ، في كتابه العزيز : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (41:30) . من الآية يتّضح لنا أنّ المسبّب في تلوّث البيئة هو الإنسان نفسه ؛ فهو يعمل على تلوّث وتدمير بيئته المحيطة به .

مركّبات البيئة التي نعيش بها مكوّنة من خمسة عناصر أساسيّة ، هي : المناخ ، الإنسان ، النبات ، الحيوان والتربة . هي مجتمعة ، تتداخل وتتفاعل مع بعضها ؛ فالمناخ بمكوّناته من الأمطار ودرجة الحرارة والرياح والرطوبة وأشعّة الشمس عواملاً أساسيّة ، تؤثّر في حياة ونموّ العوامل الحياتيّة من إنسان وحيوان ونبات (عبد الجواد، 1991) ؛ فسبحانه ، تعالى ، خلق جميع المكوّنات بشكل مدروس متوازن ، ليضمن استمرار الحياة ، حيث يقول ، جلّ شأنه : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (49:54) ، أي أنّ كلّ شيء صغير وكبير ، كلّ ناطق وصامت ، كلّ متحرّك وكلّ ساكن ، كلّ ماضٍ وحاضر ، كلّ معلوم وكلّ مجهول ، كلّ شيء خلقناه بقدر في صفاته وفي مقداره وفي زمانه ومكانه ، كلّ شيء محدّد ارتباطه بسائر ما حوله من المركّبات الأخرى ومدى تأثّره في المحيط البيئيّ (سيّد قطب : العدالة الاجتماعيّة في الإسلام) .

هكذا ، فالعلاقة بين الإنسان وسائر مكوّنات البيئة يجب أن تكون علاقة «محبّة» متبادلة ، لا علاقة عداء واستئثار (عبد الجواد ، 1995) . وهذا ما عناه رسول اللّه ، ﷺ ، إذ قال : «هذا جبل أحد ، يحبّنا ونحبّه» ؛ فاللّه وهب الإنسان من الطاقة والعقل استخدام ما في الأرض من قوًى وطاقات وكنوز ، حيث يقول ، سبحانه : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (30:2) ؛ فالإنسان موقعه في مركز النظام البيئيّ وهو المكلّف بإدارة شؤون الأرض حسب قوانين النظام البيئيّ بحيث يتيح للبشريّة الاستخدام الأفضل لهذه الثروات ، لكي يضمن استمراريّة الحياة .

الإنسان اليوم أصبح يشكّل إحدى المشاكل البيئيّة الأساسيّة ؛ فهو لم يترك نظامًا بيئيًا دون أن يقتحم معاقله ، بل لم يترك مكوّنًا من مكوّنات البيئة دون تعديل وتغيّر (غالب ، 1995) . في هذا المجال يقول ، سبحانه : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (41:30) .

لعلّ في قصّة سبأ عبرة لبني البشر ، حيث أنّهم عاشوا في نعيم حديقتين ، تحفّان ببلدهم عن يمين وعن شمال . وكانت بلدتهم بلدة طيّبة ، ذات ظلّ وثمار ، لكنّهم أعرضوا عن ذلك وبطروا معيشتهم ، فأطلق عليهم سبحانه السيل الجارف ، فأهلكت البساتين وبدّل النعيم الذي عاشوا به بجنّتين ذواتي ثمر مرّ وشجر لا يثمر وشيء نبق قليل ، لا غناء فيه . هذا هو جزاء من يكفر بالنعمة ولا يحافظ عليها ، حيث يقول ، سبحانه : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَازِى إِلا الْكَفُورَ﴾ (34:15-17) .

يضرب اللّه ، سبحانه وتعالى ، مثلاً آخر لأهل مكّة ، لعلّهم يعتبرون به ، وهو قصّة قرية من القرى ، كان أهلها يعيشون في أمان وطمأنينة ، فجحدوا بنعم اللّه ، فبعث عليهم المصائب من كلّ جانب ، حيث يقول ، جلّ شأنه : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ (112:16) .

الإسلام وحماية المياه من التلوّث :

الماء هو السائل الذي ينزل مطراً من السماء ، فتفيض به الأنهار والبحار والعيون . وقد ورد ذكر الماء بمعناه المعتاد 59 مرّة وورد في خمسة مواضع أخرى بمعنى التناسل أو النطفة (الصعيديّ ، 1994) .

فالماء هو أصل الحياة على وجه الأرض ، حيث يقول ، تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ (30:21) ؛ فلا يمكن أن يعيش إنسان أو حيوان أو نبات بدون ماء ؛ فالماء يحيي الأرض بعد موتها وفي هذا يقول ، تعالى : ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَاءٍ فَأَحْيَا الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (164:2) . وفي مكان آخر يصف اللّه عمليّة الإنبات وإحياء الأرض . وهذه العمليّة ناتجة عن سقوط المطر على وجه الأرض . وفي ذلك يقول ، سبحانه : ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبّا * مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ (80:25-32) ؛ فسقوط المطر كان السبب في إنبات النباتات التي يقتات بها الإنسان ؛ فاللّه يقول في ذلك : لقد أنبتنا عنبًا ، يُؤكل رطبًا ، وزيتونًا ونخلاً مثمراً وحدائق ملتفّة الأغصان ، تعطي الظل الوفير والثمار والفواكه إضافة إلى العشب الذي تأكله البهائم . كلّ هذه النعم هي متاع لكم ، يا بني البشر ، لكم ولأنعامكم ، فحافظوا على هذه النعم

التي وفّرها لكم اللّه ، سبحانه وتعالى .

تأكيداً على كون الماء أساس الحياة ، فهو يدخل مركّبًا أساسيّا في المخلوقات من حيوان ونبات . ويبرز ذلك في قوله ، تعالى : ﴿وَاللّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ﴾ (45:24) . فالدراسات الحديثة أثبتت أنّ الماء هو المكوّن المهمّ في تركيب المادّة وهي وحدة البناء في تراكيب الكائن الحيّ نباتًا كان أم حيوانًا . كذلك أثبتت علوم الكيمياء الحيويّة أنّ الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحوّلات التي تتمّ داخل أجسام الأحياء ؛ فهو إمّا وسط أو عامل مساعد أو داخلاً في التفاعل أو ناتجًا عنه (الصعيديّ ، 1994) .

للماء وظيفة اجتماعيّة دينيّة في تطهير البدن والملبس ممّا يعلق به من أوساخ ونجاسة حتّى يكون الإنسان مؤهّلاً للقاء ربّه . يقول ، سبحانه : ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ (11:8) . ويقول ، تعالى ، أيضًا : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِرِينَ﴾ (222:2) .

يشكّل الماء بيئة للمخلوقات والكائنات المائيّة ، وللماء الدور الأساس في النظام البيئيّ ، حيث يقول ، جلّ شأنه : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (14:16) ؛ فاللّه سخّر البحر وجعله في خدمة الإنسان ، حيث يصطاد منه ما يحتاجه من لحم الأسماك طريًّا طازجًا . ومنه يستخرج المرجان واللؤلؤ كحلى الناس . هذا وتجري به السفن شاقّة مياهه محمّلة الأمتعة والغذاء .

نظرًا لأهمّيّة الماء فقد جعله اللّه شائعًا بين الناس ولكلّ شخص الحقّ في الانتفاع به ، فهو مكفول للجميع بلا احتكار ولا فساد ولا تعطيل حسب قوله ، تعالى : ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ (28:54) . وفي هذا يقول رسول اللّه ، ﷺ : «الناس شركاء على

ثلاث : في الماء والكلأ والنار» . رواه الإمـام أحـمـد . هذا ولقـد تدخّل النبيّ ، ، في قضيّة توزيع المياه في وادي قريضة . وكان قراره في عدم جواز حبس الماء ؛ فحبس الماء ليس حقّا لأيّ دولة أو شخص . وقد جاء في نصّ القرار الذي أقرّه النبيّ ، ﷺ : «إنّ ما يحسبه الفرد في أرضه هو إلى الكعبين فإذا بلغ الكعبين أرسل إلى الشخص الآخر» . (مقتبس عند الطاهريّ ، 1991) .

نظرًا لأهمّيّة المياه حثّ الإسلام على المحافظة على هذه المادّة ، حيث أنّ المحافظة عليها هي أساس المحافظة على الحياة بأشكالها المختلفة حسب قوله ، تعالى : ﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (60:2) . هذا ولقد حثّ النّبيّ ، ﷺ ، في ضرورة الحفاظ على مياه الشرب ومنع إلقاء أيّة مواد ملوّثة في المياه التي تستخدم في الشرب أو الوضوء أو الاستحمام ، مثل إلقاء القمامة والبراز والبول . (عبد الجواد ، 1991) . وفي هذا يقول ، ﷺ : «لا يبولنّ أحدكم في الماء الدائم ، ثمّ يتوضّأ منه ! فإنّ عامّة الوسواس منه» . وقوله ، ﷺ : «اتّقوا الملاعن الثلاثة : البراز في الموارد وفي الظلّ وفي طرق النّاس» !

هكذا ، فإنّ الإسلام حريص على ضرورة المحافظة على الماء كمّا وكيفًا حتى يبقى متوفّرًا للجميع مؤدّيًا وظيفته . فعن عبد اللّه بن عمر أنّ رسول اللّه مرّ به وهو يتوضّأ ، فقال : «لا تسرف» ! فقال : يا رسول اللّه ! أو في الماء إسراف ؟ قال : «نعم ، وإنْ كنتَ على نهر» . (رواه أحمد) . حتى انّ رسول اللّه ، ﷺ ، حدّد كميّة المياه لكلّ وجه من أوجه الاستعمال في الطهارة . فعن أمّ سعد ، قالت : قال رسول اللّه ، ﷺ : «يجزئ في الوضوء مدّ وفي الغسل صاعٌ ، وسيأتي قوم يستقلّون ذلك ؛ فؤلئك خلاف أهل سنّتي والأخذ بسنّتي في حظيرة القدس منزه أهل الجنّة» . رواه أبو بكر عبد العزيز .

هكذا ، فالمدّ رطل وثلث الرطل ، أمّا الصاع ، فهو خمسة أرطال وثلث الرطل .

اللّه ، سبحانه وتعالى ، ينذر بني البشر من مغبّة تلويث المياه ، فيقول في ذلك : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾ (56:68-70) . وهكذا ، فالماء الذي تشربونه هو ماء عذب أنزلناه من السحب رحمة بكم ولو نشاء صيّرناه ماء مالحًا لا يمكن شربه . يقول ، تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ (67:30) . فهنا ينذر اللّه عباده قائلاً لهم : أخبروني إنْ أصبح ماؤكم ذاهبًا في الأرض لا تصلون إليه ، فاللّه ، تعالى ، هو القادر أنْ يأتيكم بالماء الطاهر الذي يتدفّق إلى وجه الأرض وتصلون إليه بسهولة .

الإسلام والنظافة :

لقد ورد ذكر الطهارة في القرآن الكريم العديد من المرّات ، في 31 مرّة ، في 19 اشتقاق في 17 سورة من سور القرآن . (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) . كلّ هذه المرّات تدلّ على النظافة . مع أنّ كلمة نظافة لم ترد في القرآن الكريم ، فمفهوم التطهّر هو من النجاسات والأقذار (السليمان ، 1988) . فاللّه يحثّ المسلمين على التطهّر . وفي هذا المجال يقول ، سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّه يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِرِينَ﴾ (2:222) .

فالوضوء هو المظهر الهامّ من مظاهر النظافة ، فعن أبي هريرة ، رضي اللّه عنه ، أنّ رسول اللّه ، ﷺ ، قال : «ألا أدلّكم على ما يمحو اللّه به الخطايا ويرفع به الدرجات ! إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد» . رواه مالك ومسلم ؛ فالإسلام حثّ على نظافة الجسد والثوب والمكان ، فقوله ، ﷺ : «الطهور شطر الإيمان» . رواه

الإمام مسلم . فالطهارة واجبة نظرًا لاشتراطها لصحّة الصلاة . الإسلام دعا أتباعه إلى الاغتسال ولو مرّة واحدة في الأسبوع ، وهو يوم الجمعة ، حيث قال ، ﷺ : «غسل الجمعة واجب على كلّ محتلم» . رواه البخاريّ . المقصود بالمحتلم هو الإنسان البالغ .

هذا ونعني بالطهارة طهارة البدن ، طهارة الثوب وطهارة المكان .

النظافة الشخصيّة :

الإسلام حريص على نظافة الإنسان ، فقد أمر رسول اللّه ، ﷺ ، بضرورة الوضوء ، حيث يقول : «إذا توضّأ العبد ، فتمضمض خرجت الخطايا من فمه ، فإذا استنشق خرجت الخطايا من أنفه ، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه ، حتى تخرج من أجفار عينيه . فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظافر يديه ، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه ، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه ، حتى تخرج من تحت أظافر رجليه ، ثمّ كان مشيه إلى المسجد والصلاة نافلة» . (مقتبس عند عبد الجواد ، 1991) .

فالمقصود هنا بالخطايا هي الميكروبات ولقد أشار الإسلام لها بالخطايا وبالنجاسة والشيطان ، ففي قوله ، ﷺ : «قلّم أظافرك ! فإنّ الشيطان يقعد على ما طال تحتها» . هذا ولقد أمرنا رسول اللّه بضرورة إزالة كلّ شيء ، يؤدّي إلى القذارة مثل الختان ، لئلا يجتمع فيها الوسخ وليتمكّن الإنسان من الاستبراء من البول . كذلك حلق شعر العانة والإبط وكلّ ما يتسبّب تركه في تراكم القذارة ، حيث يقول ، ﷺ : «خمس من الفطرة : الاستحداد والختان وقصّ الشارب ونتف الإبط وتقليم الأظافر» . كذلك حثّ الدين الإسلاميّ على نظافة الشعر وإكرامه حسب قوله ، ﷺ : «من كان له شعر ، فليكرمه» ! رواه أبو داود .

عن أيّوب الأنصاريّ ، رضي اللّه عنه ، قال : «خرج علينا رسول اللّه ، ﷺ ، فقال : «حبّذا المتخلّلون من أمّتي» . قال : وما المتخلّلون ؟ يا رسول اللّه ! قال : «المتخلّلون في الوضوء والمتخلّلون من الطعام . أمّا تخليل الوضوء ، فالمضمضة والاستنشاق وبين الأصابع . وأمّا تخليل الطعام ، فمن الطعام أنّه ليس شيء أشدّ على الملكين من أن يريا بين أسنان صاحبهما طعامًا وهو قائم يصلّي» . رواه ابن ماجة .

هكذا ، فإنّه من سنن الإسلام المحافظة على الأسنان ونظافتها وجعلها بيضاء . قال ، ﷺ : «تسوّكوا ! فإنّ السواك مطهرة للفم ، مرضاة للربّ» . رواه أحمد والنسائيّ .

نظافة الملبس :

لقد حثّ الدين الإسلاميّ المسلمَ أن يكون حسن المظهر متمتّعًا بما خلق اللّه من زينة وثياب ؛ فالغرض من الملبس ستر العورة والزينة . يقول ، جلّ شأنه : ﴿يَا بَنِى ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ (26:7) ، ثمّ يقول : ﴿يَا بَنِى ءَادَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ (27:7) .

في الحديث النبويّ الشريف يحثّ ، ﷺ ، المسلمين على لباس الملابس الجميلة ، حيث أنّه رأى رجلاً ، عليه ثياب وسخة ، فقال : «أَمَا كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه» ؟ رواه أبو داود ؛ فزينة الملابس شرط على المسلم أثناء صلاته ؛ فاللّه ، تعالى ، يقول في كتاب العزيز : ﴿يَا بَنِى ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (31:7) . يتّضح من الآية أنّ زينة اللباس النلديّة هي ستر العورة . أمّا اللباس الأدبيّ ، فهو التقوى ، أي أنّ الإسلام يحثّ على وجوب المحافظة على حسن المظهر وما يتبعه من النظافة ، لا سيّما في كلّ اجتماع . وهذا ما تصوّره اليوم أساليب الصحّة الوقائيّة . وهو ما عناه رسول اللّه ،

ﷺ ، في قوله : «البسوا من ثيابكم البياض ! فإنّها من خير ثيابكم ؛ وكفّنوا بها موتاكم» ! فاللون الأبيض علامة النقاء والنظافة ، وأيّ تلوّث أو وسخ ، حتّى وإنْ كان بسيطًا ، يظهر على اللون الأبيض . ومن هنا ، فاللون الأبيض مقياس النظافة والطهارة .

نظافة المنازل والشوارع :

نظافة المنزل أمر واجب ، وقد أمر الإسلام إخلاء الفضلات من المنازل ؛ فالمسكن هو المكان الذي يشعر به الإنسان بالخصوصيّة والحرّيّة ، حيث يستريح به الجسد والنفس . في هذا يقول ، سبحانه : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ (79:16) . هذا وقد كان رسول اللّه ، ﷺ ، يحبّ سعة الدار باعتبار ذلك عنصرًا من عناصر السعادة الدنيويّة حسب قوله : «أربع من السعادة : المرأة الصالحة والمسكن الواسع والجارّ الصالح والمكان الهنيء» . رواه ابن حبّان .

يهتمّ الإسلام بنظافة البيئة التي يعيش بها الإنسان ؛ فالإسلام يحبّ النظافة . في هذا يقول ، ﷺ : «إنّ اللّه ، تعالى ، طيّب ، يحبّ الطيّب ، نظيف ، يحبّ النظافة ، كريم ، يحبّ الكرم ؛ فنظّفوا أنفسكم ودوركم» ! رواه الترمذيّ . لقد حثّ رسول اللّه على نظافة البيوت ، لتكون مظهرًا من مظاهر الإسلام وهو دين النظافة وعنوانها . وبالنظافة يمتاز المسلم عن غيره . في هذا يقول ، تعالى : ﴿قلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (32:7) .

اهتمّ الدين الإسلاميّ بنظافة البيئة وصحّتها وعدم تلويثها ، حيث يقول ، ﷺ : «اتّقوا الملاعن الثلاث : البراز في الموارد وقارعة الطريق والظلّ» .! رواه أبو داود . ويقول في موضع آخر حاثًّا أمّته على نظافة الطريق : «مَن سمّى اللّه ورفع حجرًا أو شجرًا أو

عظمًا من طريق الناس ، مشى وقد زحزح نفسه عن النار» .

هكذا نهى الإسلام عن إيذاء الناس وعدم إعطاء الطريق حقّها ؛ فالطريق في المفهوم الإسلاميّ حقّ للجميع ولا يقبل الاعتداء على حقّ الناس في الطريق ؛ فقد قال ، ﷺ : «عُرِضَتْ عليّ أعمال أمّتي ، حسنها وسيّئها ، فوجدتُ من محاسن أعمالها الأذى يُمَاطُ عن الطريق ووجدتُ من مساوئ أعمالها النخاعة ، تكون في المسجد ولا تدفن» . رواه مسلم .

الضجّة من وجهة نظر الدين :

الضوضاء بمختلف أنواعها ومصادرها تعتبر مصدرًا للتلوّث البيئيّ الآخذ في الارتفاع وفي زيادة خطورته على الإنسان الذي يتعرّض لضوضاء باستمرار ؛ فمعدّلات الضوضاء اليوم في الشارع والمصنع والمؤسّسات العامّة والشخصيّة أصبحت تتعدّى المعدّل المسموح به .

تتعدّد الآثار السلبيّة المرضية العضويّة والنفسيّة والاجتماعيّة على الإنسان ، حيث تؤثّر الضوضاء على حاسّة السمع وعلى حركة الجهاز العصبيّ والهضميّ ؛ فهي تؤثّر على خلايا المخّ أثناء النوم محدثة آثارًا سلبيّة على نبضات القلب وتصلّب الشرايين وتوتّر العضلات ؛ فالضوضاء قد تعمل على إعاقة العمل وانخفاض الإنتاج . نظرًا لذلك فقد اهتمّ الدين الإسلاميّ بمكافحة الضجّة والتكلّم بصوت مقبول متوسّط ، حيث يقول ، تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (49:4-5) . إنّ مناداة الرسول من وراء حجراته أمر غير محبّذ خصوصًا وان ذلك لا يتلاءم مع مقام النّبيّ من التوقير والإجلال ولهذا كان عليهم أنْ يصبروا من الجهة الأدبيّة حتى يقصد النّبيّ الخروج

إليهم .

كذلك دعا الإسلام إلى الكلام بصوت هادئ غير مرتفع ، كما قال ، تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (49:2-3) . هنا ينهى اللّه عباده أنْ يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبيّ إذا تكلّم وتكلّمتم ، بل لا تساوا أصواتكم بصوته كما تخاطبون بعضكم بعضًا ، كراهة أنْ تبطل أعمالكم وأنتم لا تشعرون ببطلانها . فالذين يخفضون أصواتهم في مجلس رسول اللّه إجلالاً له أولئك وحدهم هم الذين أخلص اللّه قلوبهم للتقوى لهم مغفرة واسعة لذنوبهم وثواب بالغ غاية العظم .

إنّ الدين الإسلاميّ ينادي بالتوسّط وعدم إثارة الضجّة ، وفي هذا يقول سبحانه : ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ (110:17) . حتى في قراءة القرآن الكريم من المفضّل أنْ تقرأ بصوت هادئ وإذا قرأت القرآن في صلاتك ، فلا ترفع صوتك به لئلاّ يسمعك المشركون ، فيسبّونك ويؤذونك ولا تسرّ به ، فلا يسمع المؤمنون وهكذا ، فالمفضّل أنْ تكون قراءة القرآن وسطًا .

فلا عجب أنْ شبّه اللّه ، سبحانه وتعالى ، الأصوات العالية المرتفعة أكثر من اللازم بأنّها أصوات منكرة كصوت الحمير : ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (19:31) . ولقد ميّز القرآن الأصوات من ناحية جماليّة ، ففي قوله ، تعالى : ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ (108:20) . ففي يوم القيامة تخشع الأصوات بالسكون والرهبة لعظمة اللّه ، سبحانه وتعالى ، فلا يسمع إلا الصوت

الخفيّ . في الجنّة لا يسمع إلا الكلام النافع ولا حديثًا يؤثم سامعه ؛ فأهل الجنّة يقولون لبعضهم : نسلّم سلامًا ، ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا * إِلا قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ (56:25-26) .

من جماليّات الصوت تحسينه ، خاصّة عند تلاوة القرآن الكريم ؛ فعن أبي موسى الأشعريّ ، رضي اللّه عنه ، عن النبيّ ، ﷺ ، أنّه قال : «يا أبا موسى ! لقد أوتيت مزمارًا من مزامير داود» . رواه البخاريّ في صحيحه . وعن أبي هريرة ، رضي اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ، ﷺ : «ماأذن اللّه لشيء ما أذن للنبيّ ، ﷺ ، يتغنّى بالقرآن» . رواه البخاريّ .

الشجرة في الإسلام :

في العديد من الآيات القرآنيّة إشارات واضحة إلى أهمّيّة الشجرة في حياة الإنسان ؛ فلقد قضت حكمة اللّه أن يجعل الإنسان مستخلفًا في الأرض ووفّر له من النبات وما ينتجه من موادّ غذائيّة لازمة له ولحيواناته ، إضافة إلى دور النبات في تنقية الهواء من دقائق الغبار ، حيث يقول ، سبحانه : ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبّا * مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ (80:24-32) .

لقد حثّنا الرسول ، ﷺ ، على الاهتمام بغرس الأشجار وزراعتها لما فيه من استمراريّة للحياة وفائدة للناس . وقد ربط الرسول ، ﷺ ، غرس الأشجار ورعايتها بالأجر وجعله صدقة جارية ، يكتب أجرها للذي يغرسها حيّا أو ميتًا ؛ فقد قال ، ﷺ : «لا يغرس مسلم غرسًا ولا يزرع زرعًا ، فيأكل منه إنسان ولا دابّة ولا شيء إلا كانت له صدقة» . رواه مسلم . وقال ، ﷺ ، أيضًا : «ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل من له

صدقة ؛ وما سرق منه له صدقة ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة» .

عن الاهتمام بالغرس والأشجار فقد ورد في وصيّة أبي بكر الصدّيق ، رضي اللّه عنه ، ليزيد بن أبي سفيان ، لمّا بعثه على جيش إلى بلاد الشام : «إنّي موصيك بعشر : لا تقتلن امرأةً ولا صبيّا ولا كبيرًا هرمًا ولا تقطعنّ شجرًا مثمرًا ولا نخلاً ولا تحرقها ولا تخربنّ عامرًا ولا تعقرنّ شاة ولا بقرةً إلا لمأكلة ولا تجبننّ ولا تقلّل» (الصعيديّ ، 1994) . وفي الصحيحين أنّ النبيّ ، ﷺ ، قال : «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا يقوم حتّى يغرسها ، فليغرسها» . في تحريم قطع الأشجار لما فيها من نعم جليلة يقول ، ﷺ : «من قطع سدرة ، صوّب اللّه رأسه في النار» .

لقد اكتسبت بعض الأشجار مكانة مقدّسة في القرآن الكريم . أشهرها التين والزيتون ؛ فقد قال ، تعالى ، في كتابه العزيز : ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِنِينَ﴾ (1:95) ؛ فاللّه يقسم في هذه بثمرتين مباركتين قائلاً : أقسم بالتين والزيتون لبركتهما وعظيم منفعتهما .

في سورة النور (45:24) يقول ، تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ ؛ فاللّه مصدر النور في السموات والأرض ، مثل نوره كالمصباح الدرّيّ الذي يستمدّ وقوده من زيت شجرة كثيرة البركات ، طيّبة التربة والموقع ، هي شجرة الزيتون .

الخلاصة :

إنّ نظرة الإسلام للنظافة البيئيّة ما هي إلا حلقة مهمّة من مفهوم متكامل للنظافة والطهارة . هذه الطهارة شاملة لكلّ عناصر البيئة بما فيها الإنسان نفسه ؛ فقد رأينا

القرآن الكريم والحديث النبويّ الرشيف غزيرين بالتعليمات التي تحثّ على النظافة والحفاظ على الموارد الطبيعيّة باعتبارها من نعم اللّه ، سبحانه وتعالى : ﴿وَلا تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (74:7) .

فالنظافة في الإسلام بكلّ نواحيها من طهارة الجسم ظاهراً وباطنًا ونظافة الطعام والشراب والملبس والمكان هي فرض على المسلم والدين الإسلاميّ وضع التعاليم الواضحة والصريحة لاتّقاء أيّة مشكلة ، قد تنتج عن الإخلال بالنظام البيئيّ ومركّباته . وهناك تحذير واضح من مغبّة نتائج أيّ خلل في التوازن ؛ ففي قوله ، تعالى ، إشارة واضحة لذلك : ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يِرْجِعُونَ﴾ (41:30) .

هكذا ، فلو سار المسلمون حسب تعاليم دينهم الحنيف ووعوا أنّ كلّ عمل مضرّ بالبيئة هو إثم وحرام ، لعشنا في بيئة نظيفة سليمة ؛ فصدق ، تعالى ، في قوله : ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ (112:16) ، ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ (56:7) . وهذا ما عناه رسول اللّه ، ، إذ يقول : «من لم يهتمّ بأمر المسلمين ، فليس منهم» .

ثبت المصادر والمراجع :

1. **القرآن الكريم** .
2. البخاريّ : **الجامع الصحيح** .
3. حميد ، فوزي : **الجغرافية القرآنيّة : برهان خارق على عظمة الخالق** . دمشق : دار الصفديّ ، 1993 .
4. الصعيديّ ، عبد الحكم عبد اللطيف : **البيئة في الفكر الإنسانيّ والواقع الإيمانيّ** . القاهرة : الدار المصريّة اللبنانيّة ، 1994 .
5. عبد الجواد ، أحمد عبد الوهّاب : **المنهج الإسلاميّ لعلاج تلوّث البيئة** . مدينة نصر – القاهرة : الدار العربيّة ، 1991 .
6. غالب ، عبد الغنيّ قاسم : **المفاهيم والقيم الإسلاميّة للتنشئة البيئيّة** . عمّان : دار النشر ، 1995 .
7. قطب ، سيّد : **في ظلال القرآن** . القاهرة : دار الشروق ، 1988 .
8. كناعنه ، هاني سليمان : **التربية البيئيّة في الإسلام** . نشرة خاصّة ، 1999 .
9. مسلم : **الجامع الصحيح** .